الاستعمارية الاوروبية تتصارع فيما بينها لاقتسام المناطق العربية الخاضعة لسيطرة الدولة العثمانية ، وخاصة سوريا بما فيها فلسطين باعتبارها منطقة استراتيجية هامة تقع على الطريق التجاري المؤدي الى الهند والصين والمستعمرات في جنوب شرقي آسيا . وقد تضاعف هذا الاهتمام بعد فتح قناة السويس .

ففي رسالة بعث بها السياسي الانكليزي المعروف آنذاك شافيتسبوري الى وزير خارجية بريطانيا العظمى بالميرستون بتاريخ ١٨٤٠/٩/٢٥، كتب يقول : « من الضروري تحويل سوريا الى مستعمرة انكليزية ، وأكد أن ذلك يتطلب رأسمالا وأيدي عاملة الا أنه أشار لطبيعة اتجاه رأس المال نحو البلدان التي تكون فيها الملكية والحياة مؤمنتين من الاخطار . وفي ختام رسالته اقترح شافيتسبوري : « فاذا ما امعنا التفكير في مسألة عودة اليهود في ضوء تجديد بناء او استعمار فلسطين لتأكدنا من ان ذلك هو أرخص واضمن السبل لسد كل حاجيات هذه المنطقة الفقيرة بالسكان »(٦).

وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) عام ١٨٥٣ صرح العقيد غيورج غاولر الحاكم العام السابق لجنوب استراليا والحائز من خلال وظيفته على خبرات عريقة بشؤون الاستعمار فيما وراء البحار اذ قال في البرلمان البريطاني :

« المشيئة الالهية جعلت سوريا ومصر في طريق انكلترا الى الاقاليم الاخرى الاكثر أهمية في مجال تجارتها الخارجية الاستعمارية — الى الهند والصين وجزر الهند واستراليا . ان اصبع المولى تشير على بريطانيا ، ان تعمل بهمة ونشاط من أجل خلق الشروط المواتية في هاتين الولايتين .. ان على بريطانيا ان تجدد سوريا بواسطة الشعب الوحيد الجدير بهذه المهمة والذي يمكن استخدام طاقاته بصورة دائمة وفعالة ، بواسطة الابناء الحقيقيين لهذه الارض أبناء اسرائيل »(٧).

فاذا ما نحينا جانبا بعض الالفاظ المخصصة لدغدغة العواطف الدينية لدى جماهير اليهود لوجدنا ان هذا المنطق ليس غريبا على المستعمرين بل يعكس مصلحتهم في السيطرة والتوسع والاثراء الفاحش . فالمسألة بالنسبة لهم تجارية محضة وحساباتهم تجري طبقا لمبدأ الربح والخسارة وليس لاي شيء اخر ، ولدينا من الوقائع التاريخية ما يبرهن على ان حقوق الشعوب ومستقبلها لم ولن تكن في اي يوم من الايام موضع اهتمام وتقدير من قبل السادة المستعمرين ، بل ان جل هذا الاهتمام قد تركز دائما على مصالحهم الانانية . وان محاولات المستعمرين البريطانيين منذ البداية ومن ثم دعمهم او مشاركتهم لعملية خلق مستعمرة صهيونية في فلسطين لم تكن خارج اطار هذه المصالح ولم يدفعهم لذلك اية اسباب انسانية او عطف على اليهود كما ادعوا ويدعون. كما ان السياسيين البريطانيين في تلك الفترة لم يفكروا غير ذلك بدليل ان السياسي الانكليزي شافيتسبوري كتب في الفترة الاخيرة من عمره يقول : « ان سوريا (ومن ضمنها فلسطين انذاك) ستصبح بعد تعميرها بلدا تجاريا من الدرجة الاولى . ومن هم التجار المتفوقون في العالم ؟ وهل من الممكن ايجاد مكان افضل او مناخا اكثر ملائمة لتطويره بجد من قبل اليهود ؟ او ليس لانكلترا مصالحها الخاصة في تحقيق الاجراءات الضرورية في هذا الشأن ؟ ان ضررا قويا سيلحق ببريطانيا اذا ما سيطرت احدى الدول المنافسة على سوريا »(٨).

لذلك فقد بدأت بريطانيا نشاطها الاستعماري المنظم في فلسطين فأنشأت في العام ١٨٦٥ صندوق اكتشاف فلسطين في لندن، حيث عمل به عسكريون من سلاح الهندسة في الجيش البريطاني . وبتوجيه من وزارة الحرب البريطانية قاموا باجراء مسح عام للنواحي الطبيعية والاجتماعية في فلسطين كما ان مهمة هذه المؤسسة قد توسعت فشملت بعض الاقطار الاخرى في منطقة الشرق الاوسط وخاصة سوريا وقبرص ومصر